الفصل الرابع

الإسلام وقضايا الإنسان

obeikan.com

obeikan.com

الإسلام وقضايا الإنسان

أولا: ما حقيقة العلاقة بين الله والإنسان؟

١- لقد خلق الله الإنسان وجعله خليفة فى الأرض، وسخر له الكون كله بسمائه وأرضه وما بينهما، وطلب منه عمارة الأرض، وذلك يدل على أن الله أراد للإنسان أن يكون سيدًا فى هذا الكون، ولكنه فى الوقت نفسه مخلوق لله فلا يجوز له أن ينسى هذه الحقيقة، وبهذا المعنى فهو عبد لله. ولكن ليس معنى ذلك عبودية المذلة والاحتقار، فقد أعطى الله له الحرية كاملة لقبول طاعة الله أو عصيانه، وللإيمان أو الكفر به: ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]. والحرية على النقيض تمامًا من العبودية. فالإنسان دائمًا فى موقف الاختيار، ولذلك فهو مسئول عما يفعل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [الجاثية: ١٥].

٢- لقد كرم الله الإنسان، وفضله على كثير من خلقه- كما أخبر القرآن الكريم- : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وهذه الكرامة التى منحها الله للإنسان مناقضة تمامًا للمذلة والاحتقار. وعندما خلق الله الإنسان نفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ

مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، وفى هذه النفخة الروحية الإلهية تكمن العلاقة الحميمة بين الله والإنسان. فكل فرد من أفراد الإنسان يحمل فى داخله شيئًا من هذه النفخة الإلهية التى تشعر الإنسان بأن الله معه فى كل زمان وفى كل مكان: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

٣- يبيّن لنا القرآن الكريم أن الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد[١]، وأنه قريب يجيب دعوة من يدعوه[٢]، وأنه رحيم بعباده، فهو أرحم الراحمين، وقد وسعت رحمته كل شيء[٣]. وإذا كان قد ورد فى القرآن وصفه -سبحانه- بالجبار مرة واحدة، وبالقاهر مرتين، وبالقهار ست مرات، فقد ورد فى القرآن أيضًا وصفه بالرحمن سبعًا وخمسين مرة، وبالرحيم مائة وخمس عشرة مرة، بالإضافة إلى البسملة فى بدايات السور التى ورد فيها وصفه بالرحمن الرحيم مائة وأربع عشرة مرة، كما ورد وصفه بأنه أرحم الراحمين أربع مرات، وبأنه رءوف عشر مرات، وهذا عدا المرات الكثيرة التى أضيفت فيها الرحمة إليه. ولهذا كله دلالة عميقة على طبيعة الصلة الحميمة بين الله والإنسان، فهى صلة القرب والرحمة والاستجابة، فالله أرحم بخلقه من الأم على ولدها. وهذا ما يشعر به كل مسلم فى أعماق نفسه.

---

(١) سورة ق: ١٦.

(٢) البقرة: ١٨٦.

(٣) الأعراف: ١٥٦.

ثانيًا: ما موقف الإسلام من العقل الإنسانى؟

١- لعل الإسلام هو الدين الوحيد الذى أعلى من شأن العقل الإنسانى، ورفع من مكانته. فالعقل هو مناط التكليف والمسئولية، وبه يعرف الإنسان خالقه ويدرك أسرار الخلق وعظمة الخالق. والقرآن فى خطابه للإنسان يخاطب عقله، ويحثه على النظر فى الكون، والتأمل فيه، ودراسته من أجل خير البشرية وعمارة الأرض ماديًا ومعنويًا. وليس فى الإسلام شىء يناقض العقل أو يصادم الفكر السليم أو يتعارض مع حقائق العلم.

٢- لقد طلب الإسلام من الإنسان ضرورة استخدام عقله، وعاب على الذين يعطلون قواهم الإدراكية وعلى رأسها العقل من أداء وظائفها. ولذلك يعتبر القرآن هؤلاء أناسًا قد تخلوا عن إنسانيتهم فيقول: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. كما جعل القرآن عدم استخدام العقل ذنبًا من الذنوب. ولذلك يقول عن الكفار يوم القيامة: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ ﴾ [الملك: ١٠]

٣- يلفت الإسلام نظر الإنسان إلى أن الله قد سخر له هذا الكون كله وأن واجبه أن يستخدم عقله فى توظيف كل شىء من أجل خير الإنسان وعمارة الأرض: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١]،

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٣].

فالكون كله إذن مجال للعقل الإنسانى يصول فيه ويجول دون حجر على عقل أو مصادرة لفكر طالما كان ذلك من أجل خير الإنسان. فكل ما ينفع الناس يشجع الإسلام عليه.

٤- النصوص الدينية فى الإسلام ملزمة للإنسان المسلم فيما يتصل بالأصول والتشريعات الدينية. ولكن الإنسان له حرية الاجتهاد فى أمور الدنيا. وهذا ما أشار إليه النبى ﷺ فى قوله: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»[1]. فمساحة حرية الفكر والبحث العلمى فى الإسلام مساحة واسعة ومكفولة للإنسان. وكل ما فى الأمر أنه لا يجوز لأحد أن يمس حرمة المقدسات الدينية. وكل دين له مقدسات يعتز بها. فمحاولة العبث بهذه المقدسات وعلى رأسها النصوص الدينية المقطوع بصحتها كالوحى القرآنى والسنة الصحيحة بأى شكل من الأشكال بهدف تغييرها أو تبديلها بالحذف أو الإضافة أو السخرية منها محاولات مرفوضة، بل وآثمة، وتعد عدوانًا على النظام العام فى المجتمع بالإضافة إلى كونها إثمًا دينيًا. أما ما عدا ذلك من مجالات أخرى فإن فى الكون كله بأرضه وسمائه وما بينهما مجالاً لا حد له أمام العقل الإنسانى للبحث والاجتهاد والاختراع والابتكار، والإبداع فى كل صوره وأشكاله.

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الفضائل.

ثالثاً: هل الإسلام دين يدعو إلى التواكل؟

١ - من يتأمل فى آيات القرآن الكريم يتأكد عن يقين أن الإسلام دين يحث على العمل ويدفع الإنسان دفعًا إليه؛ فالعمل هو الحياة، وبدون العمل تتوقف الحياة. ومن هنا يربط القرآن فى كثير من آياته بين الإيمان والعمل الصالح، وهذا العمل الصالح يشمل كل عمل يؤديه الإنسان دينيًا كان هذا العمل أم دنيويًا طالما قصد به وجه الله ونفع الناس ودفع الأذى عنهم. والأمر بالعمل فى القرآن واضح لا غموض فيه: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾ [التوبة: ١٠٥]، بل إن القرآن يحث المسلمين على العمل حتى فى يوم الجمعة الذى يعد يوم راحة لدى المسلمين: ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ** (أى صلاة الجمعة) **فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ** ﴾ [الجمعة: ١٠].

٢ - يحث النبى ﷺ، على العمل حتى فى آخر لحظة فى حياة الإنسان ونهاية العالم، ومن هنا كان قوله: «**إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة (أى شجيرة صغيرة) فإذا استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل**»[(١)]. وقد رفض النبى انقطاع بعض الناس للعبادة فى المسجد واعتمادهم على غيرهم فى الحصول على طعامهم وشرابهم. وامتدح من يعمل ويأكل من كسب يده، وأثنى على اليد العاملة بأنها يد يحبها الله ورسوله.

(١) رواه أحمد فى مسنده ج٣ ص١٩١.

٣- كان النبى ﷺ قدوة المسلمين جميعًا بنص القرآن يعمل ويخطط، ويتدبر الأمور، ويعد لكل شيء عدته، ويأخذ بالأسباب، ثم يتوكل على الله . فالتوكل على الله لا يعنى ترك العمل، وعدم الأخذ بالأسباب، وإنما هو خطوة تالية بعد إعداد كل شيء. ومن شأن هذا التوكل أن يذكّر الإنسان بالله ويزوده بطاقة روحية تجعله أكثر قدرة على التغلب على الصعاب ومواجهة المشكلات بعزيمة لا تلين. فالتوكل على الله إذن قوة إيجابية دافعة وليس سلبية أو تواكلاً.

٤- التواكل يعنى عدم الأخذ بالأسباب، وعدم العمل اعتمادًا على أن الله سيفعل كل شيء حسبما يريد، وهذا أمر مرفوض فى الإسلام. فالله لا يعين إنسانًا لا يساعد نفسه، ولكنه مع من يعمل ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

وقد طرد عمر بن الخطاب بعض المتواكلين المنقطعين للعبادة فى المسجد اعتمادًا على أن غيرهم يرعاهم ويقوم بأمرهم وقال كلمته المشهورة: «إن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة»، واستشهد بحديث النبى ﷺ الذى يقول: «**لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»[1] أى اعملوا واعتبروا بالطير التى تخرج فى الصباح سعيًا وراء قوتها وبطونها خاوية، وتعود آخر اليوم وقد امتلأت بطونها.

رابعًا: ما موقف الإسلام من الديمقراطية وحقوق الإنسان؟

١- يعد الإسلام أول من نادى بحقوق الإنسان وشدد على ضرورة حمايتها. وكل دارس للشريعة الإسلامية يعلم أن لها مقاصد تتمثل فى

(١) رواه ابن ماجة فى كتاب الزهد.

حماية حياة الإنسان ودينه وعقله وماله وأسرته. والتاريخ الإسلامى سجل للخليفة الثانى عمر بن الخطاب مواجهته الحاسمة لانتهاك حقوق الإنسان وقوله فى ذلك: «**متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!**».

٢- تنبنى حقوق الإنسان فى الإسلام على مبدأين أساسيين هما: مبدأ المساواة بين كل بنى الإنسان، ومبدأ الحرية لكل البشر. ويؤسس الإسلام مبدأ المساواة على قاعدتين راسختين هما: وحدة الأصل البشرى، وشمول الكرامة الإنسانية لكل البشر. أما وحدة الأصل البشرى فإن الإسلام يعبر عنها بأن الله قد خلق الناس جميعًا من نفس واحدة. فالجميع إخوة فى أسرة إنسانية كبيرة لا مجال فيها لامتيازات طبقية. والاختلافات بين البشر لا تمس جوهر الإنسان الذى هو واحد لدى كل البشر. ومن هنا فهذه الاختلافات ينبغى- كما يشير القرآن الكريم- أن تكون دافعًا إلى التعارف والتآلف والتعاون بين الناس وليس منطلقًا للنزاع والشقاق: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣].

أما القاعدة الأخرى للمساواة فهى شمول الكرامة الإنسانية لكل البشر. وقد نص القرآن على ذلك فى قوله: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ [الإسراء: ٧٠]. فالإنسان بهذا التكريم جعله الله خليفة فى الأرض، وأسجد له ملائكته، وجعله سيدًا فى هذا الكون، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض. فالإنسان بذلك له مكانته ومكانه المفضل بين الخلق جميعًا. وقد منح الله هذه الكرامة لكل الناس بلا استثناء؛ لتكون سياجًا من

الحصانة والحماية لكل فرد من أفراد الإنسان، لا فرق بين غنى وفقير وحاكم ومحكوم، فالجميع أمام الله وأمام القانون وفى الحقوق العامة سواء.

أما المبدأ الثانى الذى ترتكز عليه حقوق الإنسان فهو مبدأ الحرية. فقد جعل الله الإنسان كائنًا مكلفًا ومسئولاً عن عمارة الأرض وبناء الحضارة الإنسانية. وليست هناك مسئولية دون حرية، حتى فى قضية الإيمان والكفر التى جعلها الله مرتبطة بمشيئة الإنسان ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]. وهكذا تشمل الحرية كل الحريات الإنسانية دينية كانت أم سياسية أم فكرية أم مدنية.

٣- الحكم فى تعاليم الإسلام لا بد أن يقوم على أساس من العدل والشورى. وقد أمر الله الناس فى القرآن بالعدل وألزمهم بتطبيقه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨] والآيات فى ذلك كثيرة. أما الشورى فهى مبدأ أساسى ملزم. وكان النبى ﷺ يستشير أصحابه ويأخذ برأى الأغلبية وإن كان مخالفًا لرأيه. وأظهر مثل على ذلك خروج المسلمين إلى غزوة أحد، فقد كان الرسول ﷺ يرى عدم الخروج، ولكن الأكثرية كانت ترى الخروج. فنزل على رأيهم وخرج، وكانت الهزيمة للمسلمين. ومع ذلك شدد القرآن على ضرورة الشورى، فقال مخاطبًا النبى: ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. ولا يلتفت فى هذا الصدد إلى رأى قلة من الفقهاء الذين يزعمون أن الشورى غير ملزمة، فهذا الزعم مخالف للنصوص الدينية الصريحة.

وقد ترك الإسلام للمسلمين حرية اختيار الشكل الذى تكون عليه الشورى طبقًا للمصلحة العامة. فإذا كانت المصلحة تقتضى أن تكون الشورى بالشكل المعروف الآن فى الدول الحديثة، فالإسلام لا يعترض على ذلك. وكل ما فى الأمر هو التطبيق السليم مع المرونة طبقًا لظروف كل عصر وما يستجد من تطورات محلية أو دولية.

ومن ذلك يتضح مدى حرص الإسلام على حقوق الإنسان وصيانتها، وحرصه على التطبيق السليم لمبدأ الشورى أو الديمقراطية بالمفهوم الحديث.

٤- الإسلام أتاح الفرصة لتعددية الآراء، وأباح الاجتهاد حتى فى القضايا الدينية طالما توافرت فى المجتهد شروط الاجتهاد. وجعل للمجتهد الذى يجتهد ويخطئ أجرًا، وللذى يجتهد ويصيب أجرين. والدارس لمذاهب الفقه الإسلامى المعروفة يجد بينها اختلافات فى وجهات النظر فى العديد من القضايا. ولم يقل أحد إن ذلك غير مسموح به. ومن هنا نجد أن الإسلام يتيح الفرصة أمام الرأى الآخر؛ ليعبر عن وجهة نظره دون حرج مادام الجميع يهدفون إلى ما فيه خير المجتمع والحفاظ على أمنه واستقراره.

خامسًا: ما موقف الإسلام من الفنون؟

١- الإسلام دين يحب الجمال ويدعو إليه فى كل شىء، والنبى ﷺ يقول: «**إن الله جميل يحب الجمال**»[١]. والفن هو فى حقيقته إبداع جمالى لا يعاديه الإسلام. وغاية ما فى الأمر أن الإسلام يجعل الأولوية للمبدأ الأخلاقى على المبدأ الجمالى، بمعنى أنه يجعل الثانى مترتبًا على الأول ومرتبطًا به. وهذا هو الموقف المبدئى للإسلام إزاء جميع أشكال الفنون.

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان.

وهناك معيار إسلامى للحكم على أى فن من الفنون يتمثل فى قاعدة تقول: «حسنه حسن، وقبيحه قبيح».

والقرآن الكريم فى العديد من آياته يلفت الأنظار إلى ما فى الكون من تناسق وإبداع وإتقان، وما يتضمنه ذلك من جمال وبهجة وسرور للناظرين[1]، ومن هنا لا يعقل أن يرفض الإسلام الفن إذا كان [illegible]. أما إذا اشتمل على القبح بما يعنيه ذلك من قبح مادى ومعنوى فإن الإسلام يرفضه ولا يوافق عليه.

٢- وترتيبًا على ما تقدم فإن الفن إذا كان هدفه المتعة الذهنية، وترقيق الشعور، وتهذيب الأحاسيس، فلا اعتراض عليه، ولكن إذا خرج عن ذلك وخاطب الغرائز الدنيا فى الإنسان، وخرج عن أن يكون فنًا هادفًا فإنه حينئذ لا يساعد على بناء الحياة، بل يعمل على هدمها، وبذلك يخرج عن أن يكون فنًا، بل يصير نوعًا من اللهو المذموم والعبث المرفوض، وهذا أمر لا يقره الإسلام.

٣- إذا كانت الموسيقى والغناء تحمل إلينا ألحانًا جميلة وكلمات مهذبة وأنغامًا راقية، وأصواتًا جميلة، فذلك لا يرفضه الإسلام طالما كان فى إطار المبدأ الأخلاقى، أى طالما كان هدف الفن هو السمو بالإنسان وبأحاسيسه ووجدانه ومشاعره. وقد امتدح النبى ﷺ صوت أبى موسى الأشعرى- وكان صوته جميلاً- وهو يتغنى بالقرآن. وكان النبى ﷺ يختار من بين أصحابه للأذان أجملهم صوتًا. وقد سمع النبى ﷺ صوت الدف والمزمار

(١) انظر: الحجر: ١٦، النحل: ٦، فصلت: ١٢.

دون تحرج. وفى يوم عيد دخل أبو بكر على ابنته عائشة زوجة الرسول ولديها جاريتان تغنيان وتضربان بالدفوف فاعترض أبو بكر على ذلك، ولكن النبى رفض ما أبداه أبو بكر من احتجاج فى هذا الصدد قائلاً: «**دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد**»[1]. وقد أوصى النبى نفسه السيدة عائشة أن ترسل من يغنى فى حفل زفاف قريبة لها زفت إلى رجل من الأنصار.

وهناك مرويات أخرى عديدة عن النبى ﷺ تبين أن الغناء والموسيقى ليسا من المحرمات فى الإسلام ما لم يصحبهما أمور منكرة غير أخلاقية[2].

٤- أما الرقص فالإسلام يفرق فيه بين رقص المرأة ورقص الرجل. فالرقصات الشعبية التى يؤديها الرجال مثلاً لا ضير فيها، وقد سمح النبى ﷺ للسيدة عائشة بمشاهدة الأحباش وهم يرقصون فى يوم عيد. ورقص المرأة أمام النساء لا حرج فيه. أما رقصها أمام الرجال فذلك لا يقره الإسلام؛ لما فيه من محاذير كثيرة.

٥- أما التمثيل فإنه ليس حرامًا ما دام فى إطار المبدأ الأخلاقى، ولا ينكر أحد ما للتمثيل الهادف من دور فعّال فى معالجة الكثير من المشكلات والقضاء على العديد من السلبيات فى المجتمع. ولا حرج أيضًا أن يشتمل التمثيل على ألوان من اللهو البرىء والترويح المقبول والترفيه الذى

---

(١) متفق عليه.

(٢) راجع: الحلال والحرام فى الإسلام للدكتور القرضاوى ص٢٩١ وما بعدها- الدوحة، قطر ١٩٧٨م، والشيخ محمد الغزالى: مائة سؤال عن الإسلام جـ١ ص١٧٤ وما بعدها.

لا يخرج عن نطاق المعقول. وكذلك التصوير لا ضير فيه، بل أصبح فى حياتنا المعاصرة يمثل فى أحيان كثيرة ضرورة لا غنى عنها.

٦- أما النحت أو التماثيل المجسمة فهناك نصوص واضحة فى تحريمها، ويرجع السبب فى تحريم الإسلام لذلك بالدرجة الأولى إلى ما يخشى من توقير هذه التماثيل أو عبادتها، كما كان يفعل عباد الأصنام قديمًا. فإذا لم يكن ذلك وارداً على الإطلاق نظرًا لارتفاع درجة الوعى لدى الناس فلا ضرر منه ولا حرج فيه؛ لانعدام سبب التحريم. غير أن الإسلام - من باب سد الذرائع - لا يريد أن يفتح هذا الباب؛ لما يمكن أن يترتب عليه من محاذير فى أزمنة مستقبلية. فالإسلام يشرع لكل الأجيال ولمختلف العصور، وما يستبعد فى بيئة قد يقبل فى أخرى، وما يعتبر مستحيلاً فى عصر قد يصبح حقيقة واقعة فى عصر آخر قريب أو بعيد.

***